القلقشندي ومنهجه في توظيف الرسائل الديوانية

د. وهراني قدور
جامعة تلمسان

ملخص الموضوع:

يعتبر القلقشندي من أكثر المؤرخين العرب استخداماً للوثيقة الإدارية، حيث تزخر هذه المؤلفات بالعديد من الوثائق حتى أصبح جزءاً من منهجه في الكتابة التاريخية. وترجع أهمية دراسة الوثيقة التاريخية عند القلقشندي إلى المناصب التي اسندت له حيث مارس عدة وظائف في ظل الإدارة المملوكية.

وبذلك يمكن إعتبار إهتمام القلقشندي بدراسة الوثيقة الإدارية نابعا من وظيفته، وكان الغرض من استعمال الوثائق عند القلقشندي إلى إيمانه بأهميتها في دعم الفكرة، أو الموضوع الذي يتناوله، فأورد العديد من الرسائل والمكاتبات المتبادلة بين ملوك الدول والأمراء وأرباب الوظائف الديوانية. كما دل اهتمامه بالوثيقة الإدارية إلى رغبته في زيادة توثيق مادته العلمية، لذا حرص على مشاهدة وقراءة معظم الوثائق التي ذكرها، مشيراً على مصادرها في معظم الأحيان وأماكن وجودها

abstract

Al-Qalqashandi relied on administrative documents more than any other Arab historian. His works contain a great number of documents which constitute an essential part of his approach to history. Al-

Qalqashandī's concern with documents stemmed from the many administrative positions which he held under the Mamluks. His use of documents was due to his belief that they give a firm support to the idea or subject under consideration. He furnished numerous letters and correspondence between the various rulers and the bureaucrats of the chancelleries. His concern with administrative documents indicates his desire to strengthen his arguments by referring directly to primary sources. He took great care to personally inspect and read most of the documents which he mentions in his works, referring to their sources and their locations in most instances.

تعتبر الرسائل الديوانية الصادرة عن دواوين الإنشاء والتي نسميها الوثائق، من أهم المصادر التاريخية، وهي تقع في المرتبة الثانية من حيث توثيق الخبر، فالخبر بدونها يُؤخذ مأخذ الترجيح لا اليقيين، والخبر الذي يرد في الرسائل الديوانية يعتبر مؤكداً، فالرسالة الديوانية أو الوثيقة الإدارية إذا ما صح صدورها من ديوان الإنشاء يمكن أن تعتبر الحَكَمَ الفصل في صحة خبر المؤرخ من عدمه [1]، ويمثل الوثيقة أو الرسالة الديوانية الكثير من نماذج البيعات والعهود، الصادرة عن الخليفة[2].

ويعتبر القلقشندي من أكثر المؤرخين العرب استخداماً للوثيقة في مؤلفاته، حيث تزخر هذه المؤلفات بالعديد من الوثائق حتى أصبح جزءاً من منهجه في الكتابة التاريخية[3].

كاتبنا الذي نحن بصدد دراسة منهجه في نقد الوثيقة التاريخية هو أبو العباس أحمد بن عبد الله الشهاب بن الجمال أبي اليمن الفزازي القلقشندي ثم القاهري الشافعي، نسبة إلى بلدة قلقشندة[4].

وهناك اختلاف في تسمية أبائه فقد أورد ابن حجر العسقلاني في كتاب "إنباء الغمر بأنباء العمر" ما يلي: "أحمد بن علي بن أحمد، القلقشندي نزيل القاهرة، تفقه وتمهر وتعانى الأدب، وكتب في الإنشاء وناب في الحكم، وكان يستحضر الحاوي وكتب شيئاً على جامع المختصرات، وصنف كتاباً حافلاً سماه صبح الأعشى في معرفة الإنشاء وكان مستحضراً لأكثر ذلك، مات في جمادى الآخرة عن خمس وستين سنة "[5]، ويذكر السخاوي في "الضوء اللامع لأهل القرن التاسع"ما يلي: "أَحْمد بن عبد الله بن أَحْمد بن عبد الله الشهَاب بن الْجمال القلقشندي، يَأْتِي فِي ابْن عَليّ بن أَحْمد بن عبد الله فَالصَّوَاب فِي اسْم أَبِيه عَليّ"[6]، وهو يقارن ويرجح بين كلا النسبين على أن اسم والده هو علي، وبالتالي يكون نسبه بأن اسمه أحمد بن علي بن أحمد بن عبد الله الشهاب بن الجمال أبو اليمن الفزازي القلقشندي ثم القاهري الشافعي، في حين يرد اسمه في كتاب هدية العارفين قائلاً: "أحمد بن علي بن أحمد القلقشندي شهاب الدين أبو العباس المصري الشافعي"[7].

لكن معظم الذين ترجموا للقلقشندي اعتمدوا على ما جاء به السخاوي في النجم اللامع حين قال: " فَالصَّوَاب فِي اسْم أَبِيه عَليّ "[8]، وهو في ذكر ذلك ينتقد من سبقه في ترجمته حيث يقول: "وسمى العيني والمقريزي والده عبد الله وهو وهم" [9]. لكن رغم انتقاد السخاوي للعيني والمقريزي إلا أنه لم يقدم دليلا على ما ذهب إليه ورغم أنهما معاصران للقلقشندي، لكن ما يحسب لابن حجر أنه كان معاصرا لابنه نجم الدين وقد ترجم له أيضاً[10].

ينتمي إلى أسرة عريقة تنحدر من قبيلة "بني بدر" من فزارة" حيث يتحدث عنها القلقشندي نفسه في أحد كتبه التي خصصها للأنساب، فيقول: "وبنو بدر من فزارة قبيلتنا

التي إليها نعزي، وفيها ننتسب، ولهم أجل بلاد العرب –القليوبية من الديار المصرية– ويجاورهم فيها بنو عمهم من بني مازن بن فزارة، ولكل منها بلاد تخصه، ولازالت بينهما العداوة والشحناء، ولبني بدر منهم الرياسة والقوة والغلبة، وأهل بلدتنا قلقشندة من القليوبية فرقتان: فرقة بني بدر، وفرقة من بني مازن"[11].

كان مولد أبو العباس القلقشندي سنة (756هـ/1355م[12] بقلقشندة، على أن هذا التاريخ متفق عليه، ولم يحدث أن اختلف في ذلك إثنان من المؤرخين الذين ترجموا له، حيث أشار معظم المؤرخين إلى سنِّهِ عند الوفاة فذكر ذلك المقريزي وابن تغري بردي، والسخاوي، حيث توفي في القاهرة ليلة السبت عاشر جمادى الآخرة سنة 821هـ/ 1418م. عن نحو خمسة وستين سنة[13].

تلقى القلقشندي تعليمه الأول في قريته "قلقشندة" وبقي بها حتى سن الخامسة عشر تقريباً، إذْ لا يعرف سن انتقاله إلى الاسكندرية، ويبدو أنه شعر بأن بلده ضاقت عن آماله ورغبته في العلم فارتحل عنها طلبا للاستزادة والتفقه في الدين والأخذ من مشاهير العلماء[14].

ولعل ما ذكره صاحب "إنباء العمر" من ذكائه وقدرته على الحفظ والاستظهار والاستحضار، كان دافعا للقلقشندي للسفر للإسكندرية، ل يلتقي هناك العلماء، ويتتلمذ على يد الشيخ العلامة "سراج الدين أبو حفص عمر بن أبي حسن الشهير بابن الملقن" [15] الذي كتب له إجازته في الفتيا [16]، وشرف الدين مسعود زاره في دمشق [17]، وقد أجازه للتدريس القاضي تاج الدين بن غنوم [18]، كما تذكر المصادر أن القلقشندي درس على يد

"ابن شيخة"، حيث يذكر ابن حجر العسقلاني في المجمع المؤنس: "وسمع من ابن الشيخة وغيره من شيوخنا"[19]، ثم زار دمشق مرة أخرى سنة 813هـ/ 1410م[20].

غير أن المصادر لا تتحدث كثيراً عن رحلته في طلب العلم بين قلقشندة والاسكندرية ثم القاهرة، إلا ما ذكره هو في كتبه.

وترجع أهمية دراسة الوثيقة الديوانية عند القلقشندي إلى المناصب التي اسندت له حيث مارس عدة وظائف في ظل الإدارة المملوكية ومنها: التوقيع في "ديوان الإنشاء" [21]، والمباشرة في ديوان الأحباس[22]، وكان متوليه يختار من بين العلماء المشهورين في القدرة على الإفتاء والتقوى والصلاح [23]، كما خدم نائب الإسكندرية "الصلاح ابن العوام" مدة [24]، وناب في الحكم عن قاضي القضاة الشافعي الجلال البلقيني [25]، فقد أورد ابن حجر العسقلاني في كتاب "إنباء الغمر بأنباء العمر" ما يلي: " أحمد بن علي بن أحمد، القلقشندي نزيل القاهرة، تفقه وتمهر وتعانى الأدب، وكتب في الإنشاء وناب في الحكم"[26].

وتمثل سنة (791هـ/1388م) منعطفاً كبيرا في حياة القلقشندي العلمية، إذ عين فيها كاتباً للدرج الشريف[27]، من لدن المقر البدري محمد بن فضل الله العمري، أيام توليه رئاسة دواوين في الديار المصرية، وتدرج القلقشندي في العديد من الوظائف التابعة لديوان الإنشاء، فعمل موقعاً، للدست حيث قال ابن تغري بردي في كتابه المنهل الصافي: " أحمد بن عبد الله، القاضي شهاب الدين القلقشندي الشافعي، أحد موقعي الدست ونواب الحكم"[28]، وغيرها من وظائف هذا الديوان[29].

وقد نقل لنا القلقشندي بهذه الصفة عدة وثائق مهمة كان من بينها نسخة من بيعة الخليفة الذي عاصره: " وهذه نسخة بيعة الإمام الأعظم المعتضد بالله أبي الفتح خليفة

العصر الموضوع له هذا الكتاب وصدرها من إنشاء علامة العصر وإمام أهل الأدب الشيخ تقى الدين بن حجة".[30]

وبذلك يمكن إعتبار إهتمام القلقشندي بدراسة الوثيقة التاريخية نابعا من وظيفته، وكان الغرض من استعمال الوثائق عند القلقشندي ما يلي:

– إيمانه بأهميتها في دعم الفكرة، أو الموضوع الذي يتناوله، فأورد العديد من الرسائل والمكاتبات المتبادلة بين ملوك الدول والأمراء وأرباب الوظائف الديوانية[31].

–زيادة في توثيق مادته العلمية، لذا حرص على مشاهدة وقراءة معظم الوثائق التي ذكرها[32]، مشيراً على مصادرها في معظم الأحيان وأماكن وجودها، ويذكر أنه اطلع عليه مثل قوله: " قلت وعلى هذا النهج في انفراد قاض كانت الديار المصرية في الدولة الفاطمية حتى رأيت عهدا مكتوبا لابن النعمان في خلافة الحاكم بأمر الله الفاطمي قد كتب له بالديار المصرية وأجناد الشام وبلاد المغرب "[33]؛ ويشير في مقدمة استعمال الوثيقة التاريخية إليها قائلا: "هذه صورتها" أو: "وعلى ذلك كنت تكتب" مثل قوله: " ثم يقال إنه لم يوجد من ينهض بأعباء الخلافة بعده إلا ولده فلان أو أخوه أو ابن عمه أو نحو ذلك ويؤتى بتقريظة وذكر استحقاقه للخلافة دون غيره ثم القائم بالبيعة له بحضرته أو في بعض الأطراف بأخذ البيعة له على من قبله من الرعية وعلى ذلك كانت تكتب بيعات الخلفاء الفاطميين بالديار المصرية بجملتها "[34]؛ أو يقول: "وعلى هذه الطريقة" والمثال على ذلك: " وعلى هذه الطريقة كانت عهود الخلفاء من السلف رضوان الله عليهم وعلى نهجها مشى أفاضل الكتاب المعتبرين بديوان الخلافة في العراق واختاره أفاضل الكتاب من المتأخرين بالديار المصرية"[35] فإن لم يتسن له رؤيتها أشار إلى ذلك في النهاية الاستشهاد بها مثل قوله: "...

فأمر المتوكل بإلغاء ذكر سنة إحدى وأربعين ومائتين إذ كانت قد انقضت ونسب الخراج إلى سنة ثنتين وأربعين ومائتين وأمر ابراهيم بن العباس فكتب كتابا عنه بذلك وهو أول كتاب كتب في هذا المعنى ولم أقف على نسخته" [36]؛ فإن كانت صياغة الكتاب الذي تحمله الوثيقة مألوفة عند القلقشندي وشائعة في أيامه، قال: "في العهود التى تكتب للخلفاء أن يفتتح العهد بالحمد لله. قلت وعليه العمل في زماننا مع الاقتصار على تحميده واحدة والاختصار في القول، وعلى ذلك كتب عن أمير المؤمنين المستكفى بالله أبى الربيع سليمان لولده المستوثق بالله بركة"[37].

– نزعته العلمية وسعيه لبلوغ الأحسن، كان وراء اهتمامه بالوثائق، وقد أشار إلى ضرورة على ضرورة الاطلاع على وثائق الأقدمين قائلاً: " أما النظر في رسائل البلغاء من فضلاء الكتاب فلما في ذلك من تنقيح القريحة وإرشاد الخاطر وتسهيل الطرق والنسج على منوال المجيد والاقتداء بطريقة المحسن واستدراك ما فات والاحتراز مما أظهره النقد ورد ما بهرجه السبك. واقتصر على النظر فيها دون حفظها لئلا يتكل الخاطر على ما يأتي بأصله مما ليس له فيتشبع بما لم يعط فيكون كلابس ثوبي زور. اللهم إلا أن يريد بحفظها المحاضرة دون الإنشاء فإن اللائق به الحفظ دون غيره"[38].

وقد يُعتقد أن القلقشندي اهتم بجمع الرسائل الديوانية والمكاتبات في كتابه لأهميتها التاريخية، أو ليستفيد منها الناس من الناحية الخبرية، والحقيقة أن الأمر لم يكن كذلك وإنما كان اهتمام القلقشندي بجمعها لكي يستفيد منها كتاب عصره في ديوان الإنشاء وكتاب الأجيال التالية من ناحية صنعة الإنشاء، فهي نماذج لأساليب الكتابة الديوانية يقدمها

للكتاب الذين تقتصر أقلامهم عن الأساليب التقليدية للكتابة الإنشائية البلاغية، وعن أصول إنشاء مثل هذه الرسائل[39].

وعلى الطريقة الحديثة سار القلقشندي في نقد الوثيقة بشكليها الداخلي (المضمون) والخارجي(الشكل):

1- النقد الخارجي (الشكل):

اهتم القلقشندي، بوصف الوثائق التي اطلع عليها. فوصف قطع الورق وأنواعه (المصري، الشامي، البغدادي)، وأغراض استعمال كل واحد، نوع الخط، والقلم، وترتيب الكتاب على الورق، ومقدار البيضات (الفراغات) على جوانب الورقة، في كل نوع من أنواع الوثائق[40] مثل قوله: " قد ذكر محمد بن عمر المدائني أنه كان يكتب للأمراء في قرطاس من نصف طومار وللعمال والكتاب في قرطاس من ثلث طومار وللتجار وأشباههم في قرطاس من ربع طومار وللحساب والمساح في قرطاس من سدس طومار وقد تقدم أن المراد بالطومار قطع البغدادي الكامل ولا يخفى أن المناسب لقطع النصف قلم الثلث الخفيف ولقطع الثلث قلم الكوفة ولما دون ذلك قلم الرقاع"[41]، وقوله: "تنبيه قد ذكر محمد بن عمر المدائني أنه كان في الزمن المتقدم أنه كان يكتب للأمراء عن الخلفاء في قرطاس من نصف طومار"[42]، إذ تختلف هذه الأمور بين كتب العهود والأمان، وكتب المعاهدات والبطاقات وغيرها، بحسب الموضوع والجهة المرسل إليها[43].

2- النقد الداخلي (المضمون):

تشير النصوص الكثيرة التي قدمها القلقشندي إلى اتخاذه نهجا علمياً وعمليا في نقد الوثيقة قائماً على النقد المقارن في بيان الفرق بين المكاتبات الصادرة من الخلفاء سابقاً وفي

زمانه، وانتقد بيعات الخلفاء في الديار المصرية في عصره لأنها كتبت من قبل كتاب الحكم، الذين لا إلمام لهم بكتابة الإنشاء [44]، وهو يقول في هذا الشأن: " والذى استقر عليه الحال في كتابة بيعات الخلفاء بالديار المصرية الآن أن يتعاطى كتابه البيعة كتاب الحكم الذين هم موقعو قضاة القضاة ولا إلمام لهم بصنعة الإنشاء فإن وقعت العناية بكتابة تلك البيعة أمر كاتب السر من له ملكه في صنعة الإنشاء من رؤوس كتاب الديوان فأنشأ لها صدرا على طريقة كتاب الإنشاء مفتتحا بخطبة مشتملة على براعة استهلال تناسب المقام وتدفع إلى من يتعاطى كتابة تلك البيعة من كتاب الحكم فيصدر بها ما يكتبه ثم تأتى عقب ذلك بصورة الحال الواقعة في البيعة سردا ويشهد في آخرها"[45].

ويبدو أن سبب هذا التدني في كتابة الوثائق كانت نتيجة للمتغيرات السياسية التي تعرضت لها الأمة العربية على يد الأجانب، كما يشير قوله لذلك: " وإنما تقاصرت الهمم عن التوغل في صناعة الكتابة والأخذ منها بالحظ الأوفى لاستيلاء الأعجم على الأمر وتوسيد الأمر لمن لا يفرق بين البليغ والأنوك لعدم إلمامه بالعربية والمعرفة بمقاصدها حتى صار الفصيح لديهم أعجم والبليغ في مخاطبتهم أبكم ولم يسع الآخذ من هذه الصناعة بحظ إلا أن ينشد:

وصناعتي عربية وكأنني ألقى بأكثر ما أقول الروما[46]

وانتقد القلقشندي الكثير من البيعات التي تمت دون الخضوع لقوانين صياغة البيعات المعترف بها كنحو بيعة "المعتضد بالله أبي الفتح، داود" الموضوع له الكتاب [47]، وعهد المستكفي بالله أبي الربيع، سليمان" لولده المستوثق بالله" بركة[48].

غير أن بعض المؤرخين يعيبون على القلقشندي بعض الاختلاف حين يعيد كتابة الوثيقة في أكثر من موضع أو أكثر من مُؤلف، لذلك فقد نصحوا بشيئين إثنين:[49]

1- ضرورة ضبط وثائق القلقشندي على مثيلاتها في المصادر الأخرى بعد ما تبين أن في بعض وثائقه اختلافات لفضية ونقص في المعلومات.

2- ضرورة ضبط نصوص الوثائق الموجودة في مصادر القلقشندي المختلفة.

ومع ذلك فإننا يجب أن نخرج بنتيجة مهمة هي أنه من بين ما أورده القلقشندي وثائق نادرة ينفرد بها وحده، ووثائق يتطلب العثور عليها في مصادرها وقتاً طويلاً، وجهداً مضنياً [50].

الهوامش

[1] – عبد القادر أحمد طليمات، وثائق القلقشندي في صبح الأعشى (مقالة في كتاب القلقشندي وكتابه صبح الأعشى)، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، مصر، 1973 ص119.

[2] – كمال الدين عز الدين، أبو العباس القلقشندي مؤرخا، عالم الكتب، ط1، 1990، بيروت، ص111.

[3] – الظمياء محمد عباس السامرائي، المنهج التأريخي عند القلقشندي –دراسة تحليلية–، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ط1، 2001، ص201.

[4] – قرية قلقشندة: تقع على الجنوب من مركز طوخ، مديرية القليونة.

[5] – أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، إنباء الغمر بأبناء العمر، ج 3، تحقيق: حسن حبشي، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – لجنة إحياء التراث الإسلامي، مصر، 1969، ص 178.

[6] – شمس الدين أبو الخير محمد بن عبد الرحمن السخاوي، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، ج1، منشورات دار مكتبة الحياة – بيروت، ص 355.

[7] – إسماعيل بن محمد أمين بن مير سليم الباباني البغدادي، هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، ج1، طبع وكالة المعارف الجليلة في مطبعتها البهية استانبول، 1951، ص122.

[8] – السخاوي، الضوء اللامع، ج1، ص 355.

[9]- السخاوي، الضوء اللامع، ج2، ص8.

10- أبو العباس أحمد بن علي القلقشندي، نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب اللبنانين، بيروت، 1980، (مقدمة المحقق إبراهيم الأبياري).

11- القلقشندي، نهاية الارب، ص177.

12- السخاوي، الضوء اللامع، ج2، ص8.

13- أحمد عبد الرحمن الذنيبات، أبو العباس القلقشندي أديبا، رسالة دكتوراه، جامعة مؤته 2001، ص37.

14- نفسه، ص64.

15 - نفسه، ص65.

16- نفسه، ص60.

17- الظمياء السامرائي، المنهج التأريخي عند القلقشندي، ص31.

18- أحمد الذنيبات، المرجع السابق، ص61.

19- أحمد الذنيبات، المرجع السابق، ص65.

20- الظمياء السامرائي، المرجع السابق، ص31.

21- محمد كمال الدين عز الدين، أبو العباس القلقشندي مؤرخا، عالم الكتب، ط1، 1990، بيروت، ص25

22- نفسه، ص25

23- ابن حجر العسقلاني، إنباء الغمر بأبناء العمر، ج 3، ص 178؛ الظمياء السامرائي، المرجع نفسه، ص30.

24- محمد عز الدين، أبو العباس القلقشندي مؤرخاً، ص25

25- نفسه، ص25

26- ابن حجر العسقلاني، إنباء الغمر بأبناء العمر، ج3، ص 178.

27- أبو العباس أحمد القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، دار الكتب العلمية، بيروت، ج1، ص8.

28- يوسف بن تغري بردي بن عبد الله الظاهري الحنفي، أبو المحاسن، جمال الدين، المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي، تحقيق: محمد محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص352.

29- الظمياء السامرائي، المرجع السابق، ص30.

30- القلقشندي، مآثر الانافة،ج2، ص 316.

31- عبد القادر طليمات، وثائق القلقشندي في صبح الأعشى، ص 124. ظمياء السامرائي، المنهج التأريخي عند القلقشندي، ص201.

32- عبد القادر طليمات، وثائق القلقشندي في صبح الأعشى، ص124.

33 - القلقشندي، مآثر الإنافة، ج1، ص78.

34- نفسه، ص267.

35 - القلقشندي، مآثر الإنافة، ج1، ص319.

36- نفسه، ص223.

37 - نفسه، ص337.

38 - القلقشندي، صبح الأعشى، ج1، ص288.

39 - عبد القادر طليمات، وثائق القلقشندي في صبح الأعشى،ص121.

40- ظمياء السامرائي، المنهج التأريخي عند القلقشندي، ص203.

41- القلقشندي، مآثر الإنافة، ج3، ص209.

42- نفسه، ص221.

43- ظمياء السامرائي، المنهج التأريخي عند القلقشندي، ص203.

44 - نفسه، ص204.

45- القلقشندي، مآثر الانافة،ج2، ص 315.

46- القلقشندي، صبح الاعشى، ج1، ص79.

47- القلقشندي، مآثر الانافة،ج1، ص 16.

48 - نفسه، ص 339.

49- عبد القادر طليمات، وثائق القلقشندي في صبح الأعشى، ص144.

50 - نفسه، ص 144.